# التعليم بين الإملاء والتسويق

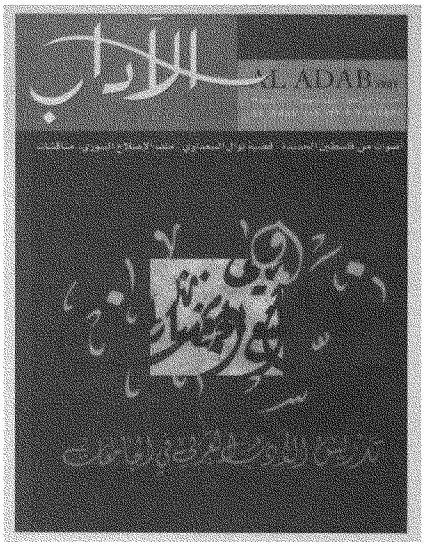


عزيزي الدكتور سماح إدريس، تحية طيبة وبعد،

إنَّ رسالتي هذه هي ـ أولاً ـ تعبيرٌ صادقٌ عن الشعور بالفرح الذي انتابني بعد قراءتي للعدد السابق من مجلة الآداب، الذي حمل ملفّاً عن تدريس الأدب العربيّ في الجامعات، وذلك لشعوركم النبيل بمشاكلنا، وتحدُّثكم عنها، في عصرٍ غدا الكلامُ فيه محرَّمًا. وقد وددتُ ـ ثانيًا ـ التطرُّقَ إلى مشاكل أخرى تواجهنا في الجامعة، ولم يَطْرحْها أحدٌ من المشاركين الأفاضل.

فبعد تجربةٍ لي دامت سنتين مع الجامعة اللبنانيّة، لا بدّ من طرح الأمور علانيةً بهدف الحوار. إذ لا بدّ من التفكير بصوت عالٍ، لأنَّ المشكلة تتفاقم، وعلينا التغيير.

يبدأ نهارُك في الجامعة عند الساعة الثامنة صباحًا، لينتهي عند الرابعة بعد الظهر. تَدْخل قاعةَ المحاضرات، راجيًا أن يحالفك الحظّ، لتَجِد مقعدًا فارغًا تجلس عليه للتعلّم، لا لهدف آخر. لكنْ، قد تُصدَم أنَّ بعضًا من محاضراتك عبارةٌ عن إملاء لا أكثر، ومن ثمَّ عليك أن تملأ الصفحات والصفحات دون ملل، وكأنَّك آلةُ طباعة لا تَصْلح إلاَّ ليُضرَبَ رأسُها بأحرف من الأبجديّة العربيّة ألَّفها أحدُ أساتذتك. بعدها، تنتهي الساعاتُ المقرَّرة للمادة دون أن تضيف إلى معلوماتك إلاَّ القليل. فأين النقاشُ الأدبيّ؟ أين رأيك؟ أين كيانك؟ أين الشخصيّة القادرة على التأثير والتطوير نحو الأفضل؟ كيف نستطيع بناءها عبر الإملاء؟ أين الشعورُ أنَّ لوجودك في القاعة أهميَّةً كبرى؟! فيوميّاً تصاب بخيبات الأمل، وبالإحباط، وأنت تسأل نفسَك: ماذا تعلَّمتُ اليوم، وهل من جديد؟ أم أنَّ اللُّغة اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ، وعلى البقيّة السلام؟ مَنْ يحثُّكَ على البحث في المعاجم، على النقد، على التعبير عمّا يجول في خاطرك من أفكار وآراء، على القراءة؟ أيُعقل أنَّ طالبًا في الأدب العربيّ يُنهي نصفَ مرحلته الدراسيَّة من دون أن يَقْرأ؟! لستُ أَذْكر أنَّ أحدًا من الأساتذة قد طلب منّا مطالعةَ روايةٍ ما أو مناقشتها. هناك فقط دواوينُ عنترة بن شدّاد، وعمر بن أبي ربيعة، وجميل بن معمر، وحسّان بن ثابت... رحمهم الله جميعًا! ولكنَّنا كنّا قد تَعلّمنا شعرَ كلّ هؤلاء في المدرسة. وإذا كانت الجامعةُ متابعةً لسلسلة المعارف التي بدأناها في المرحلة الثانويّة، فلِمَ التكرار؟ وماذا قدَّموا لنا من جديد؟! فعليّاً، لم تُضِفْ دراستي لهؤلاء الشعراء الكثيرَ إلى ما كنتُ أعرفه مسبقًا.

أضفْ إلى ذلك اختلافَ المحاضرات بين أستاذَيْن للمادة الواحدة، وهو ما يُوقِع الطالبَ في هوّة كبيرة من الحيرة: فأيّهما يختار؟! وتجدر الإشارةُ إلى استحالة دراسة المحاضرات جميعِها لكثرة المعلومات التي يعطيها كلُّ دكتور، فتغدو المادةُ وكأنَّها مادتان.

وللإيضاح فإنَّني أتحدَّثُ عن مادة أدب الجاهليّة وحضارتها.

ناهيك عن كارثة إصدار الأساتذة كُتُبًا لهم عند نهاية السنة ـ أيْ قبل الامتحان ـ دون أن يتطرَّقوا إليها خلال العام الدراسيّ، ولكنَّهم يؤكِّدون مع ذلك على أهميَّتها للنجاح. وفعلاً تَدْخل قاعةَ الامتحان وتجد أنَّ السؤال الوحيد يدور حول مضمون هذا الكتاب، فترتفع تلقائيّاً علامةُ الطالب الذي اقتنى الكتابَ وحفظه. إنَّها عمليةُ تسويق، لا تعليم!

وهناك معضلةٌ أخرى وهي الكمّ الهائل من المعلومات التي تَحْفل بها كلُّ مادة، وجميعُها مطلوبة للحفظ غيبًا. وهي تُرْهق ذهنَ الطالب الذي يهمّ بنسيانها بعد فترة وجيزةٍ، من دون الحصول على المعرفة المهمّة، ومن دون مساعدته على تطوير ذهنه.

وأخيرًا، لدينا ـ نحن طلاَّبَ السنة الثانية على وجه الخصوص ـ مشكلةُ الموادّ التي نَحْملها من السنة الأولى، والتي تغيَّرتْ بتغيُّر البرنامج القديم. ومن ثمَّ وجبتْ علينا دراسةُ المادة التي رَسَبنا بها من جديد، وبمضمون مختلف كليّاً عن المضمون السابق. أضف إلى ذلك عدم تمكُّننا من حضورها، لتضارُبِ أوقاتها مع محاضراتنا. فأين العدل أن نتحمَّل، نحن طلاَّبَ السنة الثانية، دون سوانا من طلاَّب السنوات الأولى والثالثة والرابعة، أعباءَ تغيير المناهج؟!

عزيزي،

كانت هذه هي أبرزَ مشاكلنا الجامعيّة، اللبنانيّة طبعًا. وختامًا ليس لي إلاَّ توجيهُ جزيل الشكر، لكم وللقرّاء جميعًا، لاستماعكم إليها. وعزاؤنا أنَّكم معنا.

بيروت